الشيخ علي يوسف

٢

سياسته العامة والعثمانية خاصة

كان الشيخ علي كاتبا سياسيا ، وكانت سياسته اسلامية عثمانية مصرية . ثم لما اظهر الاتحاديون العصبية التركية ، واضطهاد العرب والعربية ، كانت سياسته اسلامية عربية أولا ثم عثمانية . أعني انه يخدم الدولة العثمانية في كل ما يستطيعه الا اذا كان معارضا للاسلام او العرب ، وقد خدمها أجل خدمة في تأسيسه جمعية الهلال الاحمر في مصر ، فهو الذي سن هذه السنة الحسنة في مصر فاستفادت الدولة منها ألوف الالوف الكثيرة من الجنيهات مع بعثات طبية منظمة أدت لها الخدمة النافعة في حربي طرابلس والبلقان ، كما كان له في مؤيده اليد البيضاء في اعانتها من قبل على حرب اليونان

كان المؤيد التأثير العظيم فيما عليه المصريون الآن من التعلق الشديد بالدولة العثمانية والحب الخالص لها . وقد كانوا يمقتون الترك وحكم الترك مقتا شديدا لانهم لم يروا من آثار حكمهم ولم يحفظوا من اخبار حكامهم ما يوجب غير ذلك . وقد تجلى ذلك في الثورة العرابية أظهر التجلي ، فكان زعماؤها عازمين على جعل حكومتهم مصرية محضة يتولى ادارتها المصريون دون الترك والمتتركين من الشراكسة وغيرهم . فلما وقعت البلاد تحت سيطرة الاحتلال الاجنبي ثقل ذلك على المسلمين طبعا ، وأحسوا بضعفهم ، فحدث عند بعض المشتغلين بالسياسة فكرة التعلق بالدولة والرجاء فيها . وكبر ذلك وعي بل وجد وظهر منذ تولى الاريكة الخديوية العزيز (الحاج عباس حلمي الثاني) وفقه الله وأيده ، فانه بما سنه من زيارة الآستانة في كل عام ، أوجد في مصر حركة سياسية وطنية لم تكن في غابر الايام ، وجرأ المصريين على ما لم يكونوا يتجرؤن عليه من قبل ، وولى وجوههم شطر تلك العاصمة ، وأطلق السنتهم واجرى أقلامهم بما لم يكن يعهد من احد منهم ، وكان المؤيد خطيب هذا المنبر ، أو منبر خطباء هذه السياسة ، ولكن مصر لم تستفد شيئا مما كانت ترجوه من هذه السياسة . وانما استفادت منه الدولة تعلق السواد الاعظم من المصريين بها وحبهم إياها ، فكان من أثره جمع الاعانات لها في كل حرب تدخل فيها

لا موضع هنا لبيان أثر هذه السياسة في معاملة الانكليز لمصر وللدولة العثمانية ،

ولا لبيان تأثير هذا الحب والتعلق من الخديو وأمته في نفس السلطان عبد الحميد ثم في نفوس من خلفوه وخلفاؤه في هذه الدولة ، ولا لبيان سيرتهم مع عزيز مصر ، ولا مع الانكليز فيما يتعلق بسياسة مصر . لأن موضوعنا سياسة « الشيخ علي يوسف في المؤيد وفي نفسه » وخلاصة القول فيها أنها كانت اسلامية في كل حال - عثمانية مصرية معا أيام كانت الآمال والأماني تنوط بالدولة حل المسألة المصرية باخراج الانكليز من مصر - ثم عثمانية محضة مصرية محضة بعد ما خابت تلك الآمال ، وطاحت تلك الاماني والاحلام ، التي كان يقال في مثلها « حياتنا بين يدي المابين »

ثم عربية عثمانية في العهد الاخير ، كما اشرنا الى ذلك في فاتحة الكلام . بل صارت خدمته للدولة في هذا العهد داخلة في سياسته الاسلامية العامة . وسيأتي الكلام في سياسته المصرية خاصة .

يقول أعداؤه وخصومه في السياسة من قومه انه كانت متقلبا في سياسته ، ويعدون عليه من ذلك ما قد يعد له . والسياسة متقلبة بنفسها ، فالذي يجمد على حال واحدة لا يستطيع أن يكون سياسيا ، لان الاحوال تتغير دائما ، والسياسي هو الذي يدور معها كيفما دارت . وفي الحكم والامثال « دوام حال من المحال » وانما يعاب على الرجل أن يكون متقلبا في المقاصد لا في الوسائل

فعلى هذه القواعد التي لا نزاع فيها يرد أنصار الفقيد شبهة خصومه بانه كان في سياسته أثبت من الأطواد . أما سياسته الاسلامية فالامر فيها ظاهر ، ولم يتهمه بالتحول عنها متهم ، وأما سياسته العثمانية فقد ثبت عليها حتى الممات أيضا . وآخر خدمة خدم بها الدولة تأسيس جمعية الهلال الاحمر المصرية ، وكان عضوا عاملا في جمعية اعانة الحرب أيضا . نعم انه شن على جمعية الاتحاد والترقي حربا عوانا لاعتقاده أن ما سارت عليه في سياسة الدولة وادارتها كان ضارا بالدولة العلية والامة العثمانية عامة ، وقومه العرب خاصة ، ومضعفا للرابطة بين الدولة و بين مصر . . ومنافيا للسياسة الاسلامية أيضا ولم يكن رحمه الله منفردا بهذا الاجتهاد بل كان متفقا فيه مع جماهير العثمانيين من الترك والعرب الذين الفوا عدة أحزاب لمقاومة الجمعية ، وصار أكثر اعضاء مجلس الامة عليها فاضطرت الى حله بالارادة السلطانية . ثم ان الجمعية نفسها صرحت بأنها كانت مخطئة في كثير من أعمالها ومقاصدها وانها رجعت عنها ، ومنها تتريك العرب وغيرهم من الاقوام العثمانيين

فظهر للمتتبع للحوادث انه قد ظهر انه كان مصيبا في انتقاده ، وكان آخر ما ظهر للجمهور من غرور سياستها هو أول شيء كان أول من انتقده عليها جهرا ،

وهو جعل السلطة في أيدي الضباط واشغالهم بالسياسة وقد قال في هذا الموضوع كلمته المشهورة في بيروت في أول العهد باعلان الدستور ، وسكر الناس كلهم بخمرة الفرح والسرور ، وهي « ان السيف والسياسة لا يجتمعان في غمد واحد » قال ذلك لما رأى بعض صغار الضباط الاتحاديين في بيروت يتصرف في الحكومة تصرف الحاكم المطلق المستبد. ثم تبين أن ضرر اشتغال الضباط بالسياسة والادارة قد اضعف الدولة وقسم القوة فيها على قسمها ، وكان أهم اسباب الخذلان في الحرب البلقانية الاخيرة كما صرح به القائد الالماني الكبير (البارون فندر غلتز) باشا منظم الجيش العثماني

ويقولون ان التقلب والذبذبة في السياسة العثمانية هو ما جرى عليه خصوم الفقيد الذين صدق عليهم المثل « رمتني بدائها وانسلت » ذلك بأنهم ينتصرون لصاحب القوة أخطأ أم أصاب ، نهض بالدولة أم هوى بها . فكانوا يقدسون السلطان عبد الحميد ويقولون في طلاب الدستور والاصلاح منه اشد مما قال مالك في الخمر . وكانت قاعدة سياستهم ما وضعه لهم زعيمهم مصطفى كامل باشا من الغلو في السلطان عبد الحميد والتشنيع على طلاب الاصلاح والدستور منه ، حتى انه اوجب على من ينطق بالشهادتين ـ الشهادة لله تعالى بالوحدانية والشهادة لمحمد (ص) بالرسالة ـ ان يثلثها بالشهادة للسلطان عبد الحميد الخ وقد صرحوا في جريدتهم اللواء قبل اعلان الدستور بيوم واحد بأن طلاب الدستور اعداء الدولة الخونة لانه يضر الدولة ويفسدها ... بل كانوا بعد إعلان الدستور ايضا يصيحون في وجوه بعض العثمانيين المبتهجين به . ثم لما استقرت السلطة العلمية إعلان الدستور وصار بيدهم المال والقوة قدسوهم كما كانوا يقدسون السلطان عبد الحميد ، وصاروا يلعنون خصومهم كما كانوا يلعنونهم عند ما كانوا خصوم السلطان عبد الحميد

هذا ملخص ما يرد به أنصار الشيخ علي على خصومه في مسألة ثباته على سياسته العثمانية في جوهرها ، وهو انه كان يتبع المصلحة ويدور معها ، وهم يتبعون رجال السلطة ويدورون معهم . وقد فتح هذا الباب لخصم ثالث يقول : ان الشيخ عليا كان من أنصار السلطان عبد الحميد أيضا ، بل هو استاذ مصطفى كامل في الغلو فيه ، وقد نال من رئيسه واوسعه اكثر مما نال مصطفى كامل ، وبقي ثابتا على الثناء عليه فلم ينقلب عليه بعد سقوطه ، كما انقلب عليه تلاميذ مصطفى كامل ، وكنا ننتظر ان يعد أنصاره هذا من ثباته . ولكنك تذكر عنهم أن الشيخ كان يتبع في خدمة الدولة العلية المصلحة ، لا الرجال الذين بيدهم المال والقوة ، فهل كان الشيخ على يجهل ان السلطان عبد الحميد مخرب للدولة أم لا ؟ ان قلت : نعم ! فما هو بالسياسي ، وان قلت لا !

فما هو بالناصح الذي يتبع المصلحة . وانما الناصح في هذه المسألة هو المقطم دون المؤيد ودون اللواء الذي تلقى هذه السياسة الحميدية كالصرية ، ثم أربى عليه في الغلو فيها وغشّ الناس بمدح ذلك السلطان المخرب . فما قول أنصار الشيخ الذي يبالغون في مدح سياسته فيفرقون في هذا ؟ وما قولك وأنت تبحث في سياسته بحث المؤرخ الصادق المنصف ؟

أقول ان آخر ما أعرف من شوط أنصار سياسة المؤيد في هذه المسألة أن السلطان كان هو الدولة ، فكان لابد لمن ينتصر لها لكونها إسلامية وللتقوي بها على الاحتلال الاجنبي في مصر من مدح السلطان والدفاع عنه كيفما كانت سيرته في سياسته وادارة المملكة . والسياسي لا يكون صوفيا ولا ناسكا يلتزم الحق من كل وجه ، بل يلتزم مصلحته والمنفعة التي اتخذها قاعدة لسياسته . والمقطم ما كان يذم السلطان وينقده بمخازيه انتصاراً للحق وغيرة على الدولة ، بل ليصرف عن الدولة قلوب المصريين ويقطع حبل رجائهم فيها خدمة للاحتلال ، لاجل هذا كان في حجاج وخصام دائم مع المؤيد ثم مع اللواء الذي اتبع سنن المؤيد وغلا فيها غلوا كبيراً . واما الاقتناع برتب السلطان واوسمته فلا يلام عليه مثل الشيخ علي ولا مصطفى كامل ، لان التصدي للزعامة السياسية يحتاج الى ذلك ، لانه يزيد في جاهه ويعلي من مكانه ويؤهله للقاء عظماء الحكام والسياسيين أصحاب المناصب فيعدونه من طبقتهم . وانما يعاب بمثله من يخدم المصلحة العامة تعبداً لله تعالى ، أو من يبني خدمته على مقاومة تمييز بعض الناس على بعض بهذه الرتب التي تمنحها الحكومة ويطالب إبطالها ، ليتفاضل الناس بعلومهم وأعمالهم ، لا بالألقاب اللفظية ، ولا بحلى الاوسمة الفضية والذهبية

أما أنا فأقول إن كلا من المؤيد واللواء ... ومقلدهما الاهرام .. قد أضر المسلمين والعثمانيين عامة والمصريين خاصة بما جرين عليه من الاسراف في مدح السلطان عبد الحميد والدفاع عنه ، ولولا ان جمهور المسلمين كانوا يحملون ذم المقطم لسياسته وادارته وتنديده به على سوء النية ويظنون ان أخباره غير صادقة ، ولولا تلك الردود عليه لكان نفع ما نشره عظيما ، ولقد كان يكون النفع أعظم لو كان المؤيد واللواء ينشران مثل تلك الاخبار ويبنون عليها مطالبة السلطان بالاصلاح ، مشايعة لطلابه من العثمانيين من الاعتدال .

وقد كنت أقول لمن اذاكرهم في ذلك من عقلاء المصريين : إن المقطم ينشر بعض ما يعلم ، ويعلم بعض ما يقع . وانه يجب عليكم أن تعتبروا بأخباره ، مهما كان

ظنكم ورأيكم في نيته . والا كنتم طالبين للتلذذ بمدح الدولة والسلطان ، لا لمعرفة الحقيقة التي يتبعها الصلاح والفساد . فتشايعون السلطان على ما يضر ، وتتكلون عليه في أمر الاسلام وأمر مصر ، وكل ذلك من بناء المصلحة على وعث من الرمل ، بدلاً من بنائها على الصخر ، وهو ان تعرف الامة حقيقة حال دولتها وحكومتها ، وتعتمد على سعيها وعملها في إصلاح نفسها واصلاحهما .

ومما أعرفه الشيخ علي رحمه الله تعالى من المزية في سياسته العثمانية ، بل في اخلاقه وسجاياه الفطرية ، أنه كان كلما ازداد علما وخبرة بأحوال الدولة ازداد ميلا الى مساعدة طلاب الاصلاح من العثمانيين على ما يطلبونه ولكن مع روية واعتدال، ومحافظة على كرامة السلطان لعدة اسباب (منها) مراعاة صلة الولاء بينه وبين الخديو التي كان هذا يحافظ عليها فلا ينقطع عن زيارة ذلك سنة من السنين . (ومنها) ما كان يراه اولا من عدم تعلق المصريين به في المسألة المصرية (ومنها) اتقاء ان يظنوا أنه صار خصما للدولة . (ومنها) أن مفاجأة الناس بخلاف ما يرونه ربما يفضي الى ضد ما يراد منه ، وينفرهم من المؤيد ، فاما انا لم يعد خصومه هذا من ثباته على حفظ كرامة السلطان ، ويعدون مساعدته لطلاب الاصلاح من التقلب في السياسة وعدم الثبات ؟

لا اذكر من الشواهد على رغبته في معرفة حقيقة حال الدولة ومساعدة طلاب الاصلاح فيها ما كان بينه وبين مراد بك صاحب جريدة (ميزان) الذي كان من زعماء جمعية الاتحاد والترقي الاولى ، ولا ما كان من صلته بمحمود باشا الداماد ، فان هذا مما لا أعرف حقيقته وخفاياه . واكتفي بأصح الشواهد وأثبتها وهو ما وقع لي معه :

إنما كثر اجتماعي به وكان مبدأ صحبتي له في سنة ١٣١٦ اذ كنت أطبع (المنار) بمطبعته في أواخر سنته الاولى وأوائل سنته الثانية قبل شراء مطبعة له ، وما كان اسرع ما وثق بي على قلة ثقته بالناس . ولما رأيته يحدثني بحرية واستقلال فكر ، ويقبل مني ما أذكره له من الانتقاد على الدولة والسلطان، خلافا لاكثر من عرفته في مصر من الاخوان ، رغبت اليه في جعل المؤيد لسانا لطلب الاصلاح في الدولة ، فقال لي : اكتب ما تشاء من رأيك في ذلك مع الاعتدال وحفظ كرامة السلطان ، وذلك كاف في ايصال هذه الافكار والآراء الى الناس . فكتبت عدة مقالات في موضوع حاجة الدولة الى الاصلاح وما يجب منه في هذا العصر . فكان ينشرها في صدر المؤيد غالبا كما ينشر غيرها من مقالاتي التي كنت أذيلها بامضاء (م . ر) ويرمز بها هو اليه « احد افاضل الكتاب المجيدين »

ما كنت أظن يومئذ ان أحداً من المتعلمين المدركين في مصر ينكر عليه نشر تلك المقالات لاني كنت أنشر في المنار ما هو اشد منها في تمثيل الخلل والفساد ، وما يجب على الامة والدولة من الاصلاح . حتى دخلت عليه يوما فاذا هو في جدال مع محمد بك فريد في مقالة من تلك المقالات . كان فريد يقول له ان نشر مثل هذه المقالة يعد خروجا من المؤيد عن خطته ، وان ذلك قد ساء اخوانهم الوطنيين جداً ....
وقد علمت منه بعد ذلك ان كثيرا من أصحابه كلموه بهذا اللسان ، ولم يرأن يذكر لي ذلك حتى سمعته بأذني . وأطلعني ايضا على رسالة جاءته من تونس واخرى من جاوه في الرد على مقالة من مقالات (المنار) ساءت كثيراً من الناس في تلك الاقطار ، إذ عدوا النصيحة لجهلهم عداوة للدولة وخروجا عليها ، ولكنه لم ينشرها لانه كان يرى أن ما ينشره المنار حق ، وقد كتب بعداد الغيرة والاخلاص للدولة .

أليس هذا دليلا على كونه كان يراعي المصلحة العامة ، ويحب إصلاح الدولة ويساعد المصلحين ، بشرط ان لا يضر بنفسه ولا بجريدته ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ولعله لولا ظهور جريدة اللواء والتزامها خطة الغلو في تقديس السلطان عبد الحميد وفي المسألة المصرية ووقوفها للمؤيد بالمرصاد ، وإساءتها تأويل كل ما ينشر فيه بقلم الروية والاعتدال ، لما وقف المؤيد بالمصريين عند ما عهدوا في السياسة العثمانية ، بل لصعد وتأوب في السير الى الغاية التي تجب ، وهي معرفة حقيقة حال الدولة ومعرفة حقيقة أنفسهم ، ومكانهم منها ومكانها منهم ، وما يجب عليهم لها ولانفسهم ، ولكانت مصر حينئذ هي المعين الأكبر لاحرار العثمانيين على ما كانوا يطلبون من الاصلاح ، ولوصلوا بذلك الى خير مما كان من اكراه الجيش السلطان على اعلان الدستور ثم خلعه بقوة السلاح ، وما ترتب على ذلك من الشقاق والخذلان الذي نشكو من سوء عواقبه الآن .

وجملة القول في سياسة المؤيد العثمانية إنها بنيت أولا على اساس المسألة المصرية ، وقصد بها تقوية الصلة بين الدولة ومصر ، وبين السلطان والخديو . وكان الشيخ علي لا يعرف في أول العهد بها من أمر الدولة والسلطان شيئا ، الا ما اقتضته الحالة من تلك الحركة الخديوية ووافق ما جبل عليه من النزعة الاسلامية . ثم انه صار كلما زاد علما بالدولة واختبارا يتلطف في النصح ، ويساعد طلاب الاصلاح من العثمانيين ، مع مراعاة ما كان يرمي اليه من تقوية الصلة بين مصر والدولة العلية ، والمحافظة على كرامة السلطان ان لم يكن لذاته فلما هو متحمل به من لقب الخلافة الاسلامية ، ولما بينه وبين مصر من الرابطة الرسمية

واما اللواء فقد بدأ سياسته العثمانية بما تلقفه من سياسة المؤيد في طفولته ، (أي للمؤيد) وغلا فيها كدأبه وعادته ، وكان كلما زاد صاحبه معرفة بسوء حال السلطان عبد الحميد وزبانيته ، يزداد غلوا في اطرائه وتقديسه ، وإسرافا في التشنيع على طلاب الاصلاح للدولة . ذلك بأنه كان له راتب مالي يأخذه من (المابين) فوق ما نال من الرتب والاوسمة لنفسه ولكثير من المصريين ، وفوق المال الذي كان يأخذه بأسماء أخرى كعقد الاحتفالات السنوية بعيد الجلوس السلطاني في أوربة . ووراء ذلك ما لا يحسن ذكره في هذه الترجمة . فاذا كان هذا هو اثبات الجمود عند الذين يطعنون في الشيخ علي لتحوله عنه ، فأعدل ما نحكم به في هذه القضية قول الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل »

على اننا رأينا ان الشيخ ثبت على خدمته للدولة في تقوية حقوقها في مصر ، وناهيك بتلك الغارة الشعواء التي شنها على حكومة بلاده في مسألة القضاء الشرعي اذ أرادت بضغط الانكليز ان تبطل جعل تولية قاضي مصر الاكبر من حقوق السلطان يرسله من الآستانة ، وفي إعانة المصريين لها بالأموال ، ولا سيما في أزمنة الحروب والشدائد . وفي تقوية الصلة بين عابدين والمابين (كما يقال في عرف هذا العصر) وقد ختم ذلك بأفضل خاتمة ، وهي تأسيس جمعية الهلال الاحمر ، واستقال أخيرا من لجنة إعانة الحرب البلقانية لأنه اقترح أن ترسل اللجنة الى الدولة ما بقي في صندوقها من المال ـ وهو مبلغ كبير ـ بعد انتهاء الحرب ، فابى الرئيس واكثر الاعضاء ذلك . فايدلنا المعارضون على خدمة غيره لها ، التي تضاهي خدمته وتفي غناءها . ومن سبر غور السياسة يعلم ان حملته على الاتحاديين كانت انفع للدولة في سياستها ومصلحتها الدائمة من تلك الاعانات المالية ، لأنها تفيد في اصلاح سياستها الدائمة . والاعانة منفعة موقتة عارضة ، ورحم الله الاستاذ الامام حيث قال : « ما وعظك مثل لأم ، ولا قوّمك مثل مقاوم »

سياسته المصرية

كانت مقاومة الاحتلال والسعي لجلاء الجيش الانكليزي عن مصر من قواعد سياسة المؤيد الاساسية ، وقد كان ذلك مرجوا الآن حكومة لندرة كانت تصرح رسميا بأن احتلالها لبلاد المصرية موقت وانها ستجلي عنها ، ولأن دول أوربة كانت معارضة لها في احتلالها معرقلة لكل ما يثبت قدمها ، واشدهن في ذلك فرنسة ، ولأن

الدولة العثمانية كان يحسب لها حساب كبير في هذا . فلما عرف الفقيد حقيقة الدولة العثمانية ، ومنتهى شوطها في المسألة المصرية ، ورأى كيف رجعت فرنسة القهقرى في حادثة (فشوده) الشهيرة ، ثم كيف عقدت (سنة ١٩٠٤) مع انكلترة الاتفاق على ترك حقوقها بمصر ، في مقابلة مساعدتها على احتلال مملكة مراكش ، ثم كيف تتابعت سائر الدول الكبرى على اقرار انكلترة على احتلالها في مصر ، واعطائها العهود على عدم معارضتها فيه — لما علم ذلك رأى ان العمل النافع لمصر انما يكون فيها وفي لندرة ، لأن الجذب والدفع صار محصورا بين المصريين والانكليز ، فلا رجاء في احد يساعد المصريين مساعدة يرجى نفعها الا بعض احرار الانكليز محبي الانصاف أو المعارضين لحكومتهم في سياستها الاستعمارية . فحصر عمله في هذين الامرين ، فقامت عليه قيامة جريدة اللواء وأنصارها ، وسموا المؤيد بالقطام الاحمر ، لأن الوطنية وخدمة مصر عندهم تحل في شيئين : مطالبة الانكليز بالجلاء عن مصر ، وشتم نظار الحكومة وذم كل عمل تعمله في مصر . أما الفقيد فقد اغتنم فرصة إصرار اللواء على الغلو في المعارضة للسير على ما أوجبه عليه تغير السياسة الخارجية وطول التجربة والاختبار من الاعتدال في المعارضة ، واقامة الحجة لمصر بأن فيها من يتكلم ويناضل بالحجة والبرهان ، لا بالتمويه ومكابرة الحس والعيان ، وكان يرى ان الحماقة والجهل ، قد تكون عنا الروية والعقل ، فيكره أن يصادر اللواء في حريته ، على ايذائه له ولوطنه .

أما عمله في مصر لمصر فطرقه وأنواعه كثيرة ، منها ما هو خاص بتنبيه الاهالي وارشادهم الى ما ينفعهم في التربية والتعليم والآداب والفضائل ، وفي الكسب والاقتصاد والتعاون على الخير ، ومنها ما يتعلق بحقوق الامة على الحكومة ، والتعارض والتجاذب بين مصر والمحتلين

وكان ركن سياسته المصرية الركين تأييد نفوذ الامير الشرعي (الخديو) وسلطته في كل أمر ، والتوسل الى ذلك بكل ما يمكن ، ويحتج بأن كل ما زاد في سلطته ونفوذه فهو ربح لمصر على الاحتلال ، وكل ما نقص منها فهو مزيد في سلطة الاحتلال ونفوذه . فكل امر للامير فيه رأي أو قصد فهو الخادم الأمين له فيه ، ينصره برأيه وقلمه ولسانه ، وان خالف رأي نفسه ، الا أنه في هذه الحالة قد يتلطف في عرض رأيه على مسامع الامير قبل الشروع في العمل ، فان قبل فذاك ، والا أخذ بقول الشاعر : * بسيد القول ما يقول الرئيس * وقد ثبت على هذه السياسة واستقام على هذه الطريقة طول حياته ، ولقي في ذلك من الأذى ما يلقاه أمثاله من كيد الحاسدين له على قربه

من أريكة الملك ، ومعارضة المخالفين له في السياسة والرأي ، وخسر كثيرا من الاصدقاء الذين لا ينكر ماله عليه أو على الامة من الفضل ، لان هؤلاء يرون أن الاخلاص للبلاد في خدمة الامير انما تكون بحسب اعتقادهم ورأيهم وان لم يرضه احيانا.

وقد كانت اضاعته لبعض هؤلاء الاصدقاء الاوفياء أنهض حجج من رموه بقلة الثبات وعدم الوفاء ، ويقل من يعرف كنه هذه الوقائع وزنها بالقسطاس المستقيم ، بل في هذا القليل من بين الناس ما هو الراجح والمرجوح في هذا الميزان ، للتعريف بحقيقة هذا الرجل الذي يقل مثله في الرجال

انا سمعنا بعض الذين رثوا الرجل في منظومهم ومنثورهم قد وصفوه بأنه أوفى الاصدقاء في هذا الزمن الذي قل فيه الوفاء ، وانني — ولا أنكر ان بعض الناس غلوا في اطرائه — أقول انه كان ذا وفاء يقل من يضاهيه به . وأما الذين يصفونه بعدم الوفاء فمنهم صاحب الهوى المتبع الذي يتكلم بسوء قصد ، ومنهم المنصف الذي يعتقد ما يقول

اما سيء القصد فلا علاج لمرضه ولا جواب لقوله . وأما المنصف فله عندي جواب استخرجته من الشواهد التي عرفتها في هذا الباب ولعلها أوضحها وأكبرها ، وهو ان الرجل كان سياسيا قبل كل شيء ، فهو ما ترك صداقة صديق الا في سبيل السياسة ، والا بعد ان تعذر عليه الجمع بين صداقته وبين ما تقتضيه تلك السياسة . وما لي لا أصرح فأقول كان اذا غضب مولاه ، الذي تدور سياسته على قطب رحاه ، على أحد اصدقائه ، يبذل كل ما يراه في وسعه من وسائل ارضائه ، فان لم يستطع حافظ على مودته بالقدر الممكن . فاذا رأى انه مضطرا الى هجره هجره هجرا جميلا ، واذا اضطر الى كتابة ما يسوءه لا يتعدى حد الضرورة التي تقتضيها السياسة الا قليلا . واذا استطاع في أثناء ذلك ان يخدمه بشيء خدمه ، ان لم يكن ذلك في الجهر ، فمن وراء الستر . وهل يستطيع السياسي الذي يخدم الامراء والملوك أكثر من هذا ؟

كأني بعض هؤلاء المنصفين يقول اذا قرأ هذا : « ان عندي انتقاداً آخر على الرجل وهو انه ما كان يقف في مثل هذا عند حد المصلحة العامة أو عند الحق ومقتضى الفضيلة » وانني أذكر هؤلاء — الذين تمثل بعضهم أمامي الآن — بما قلته من قبل في السياسي الذي يشتغل بالسياسة فعلا من كونه لا يزن أعماله بالميزان الذي يزن به الصوفي أو فيلسوف الأخلاق ، وليس ما شرحته من سيرة الرجل في هذه المسألة بالذي يكثر في عصرنا من تصل به الفضيلة الى مثله . ولا هو بالذي يرتقي الى وضعه في ميزان سياسة عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ولا بالذي

بعد من مقامات الصديقين ، المشروحة في كتابي احياء العلوم ومدارج السالكين

أين هذه السيرة ممن كان اذا سخط من أحد لأنه لم يعطه التعظيم الذي يحبه لنفسه ، يغلو جهد طاقته في ذمه وإيذائه ، ويقعد له بكل طريق يسير فيه ولو الى خدمة الملة والامة ، فيضع له العوائر ، ويحفر له الاسافير ، ولا يرقب فيه الاّ ولا ذمة ؟ أيجوز أن يقرن هذا بذاك ؟ كلا إن ذلك ظلم وجهل بأقدار الرجال ، لا يذهب الى مثله الا بلداء العوام واغرار الاطفال . (الترجمة بقية)

باب الاخبار والآراء

كتاب ابن الرشيد الى الصدر الاعظم

ذكر في بعض الصحف أن سعود باشا الرشيد كتب الى الصدارة العظمى كتابا قال فيه :

« علمنا أن بعض الناس يقومون الآن في بعض الولايات طالبين من الدولة العلية مطالب مجحفة بحقوق الدولة ومنافية للدين الاسلامي الحنيف . الامر الذي ساءنا جدا . وعليه ليكن معلوما لدولتكم ولدى العالم الاسلامي أجمع اننا لا نقبل هذه الشؤون المضرة بالدين الاسلامي والدولة . وانا مستعدون مع كافة جنودنا وقبائلنا للقيام بما تأمرنا به الدولة العلية ولا نحيد عن اوامر خليفتنا المعظم » اه

ونحن نقول « أفلح الأعرابي ان صدق » في قوله انه لا يرضى بما ينافي الدين وانه لا يقبل الشؤون المضرة بالدين والدولة . نقول هذا ونحن لا نعلم ماهي المطالب التي يعنيها إذ لم يبلغنا أن الناس طلبوا في بعض الولايات ما ذكره ، ولو أنه أشار الى تلك المطالب لعلمنا مبلغ صحة حكمه عليها، وهل هو مصيب فيه او مخطئ ؟ وهل قال قوله عن علم باحكام دين الله ام لا ؟

وياليت شعري اذا علم الامير ابن الرشيد ارشدنا الله وإياه الى نصر الدين والدولة ـ ان بعض الناس يطلبون من الدولة منع الفواحش والمنكرات كالسكر والزنا والربا والمجاهرة بالفطر في رمضان نهارا من دار الملك والخلافة ومن غيرها من البلاد العثمانية واقامة الحدود الشرعية فيها كلها ، وعدم بيع شيء من ارضها أو معادنها للاجانب ، هل يكون مستعدا مع جنوده وقبائله لنصرتهم وشد أزرهم ؟ فان كان ينصرهم ولو بلسانه وقلمه فليعلن هذا كما أعلن ذاك ، وان لم يفعل علم العالم الاسلامي أجمع انه غير مستعد الا لما كان يعده له السلطان عبد الحميد من قبل ،